

العصفور

قصّة بقلم محمد وليد هدي

أصوات:

« سق .. سق سق .. سق سق سق سق سق »
- اسمع ! - يسود اصوات - : « سيق سيق .. سيق سق » ! .
لقد التقطت طافوحتنا عصفورا .
- أية طافوحة ؟
- المتوسطة ! أسرع أسرع !

انقضضت فورا كالشبح . حاوطتها بالفربال .. فرحنا . أحاطت
المتعة جوانحنا . رقصنا الدبكة كيفما اتفق . هممنا . أكبرنا أنفسنا ،
وعلى أحضان الثرى تمددنا ننظر من خلل ثقوب الفربال . لأول مرة
عصفور يعيش بقرينا في حيز محدود ، تحت رحمتنا . رأينا الشمس
تنكسر أشعتها من خلال شباك الفربال على حي مصعوق ونحن خارج
الشباك .

العصفور يحاول التملص عينا وينشده ، ثم ينقطع صياحه ويكفهر
ويلبّد .

احتفلنا يومها أي احتفال : أرسلنا في طلب الطعام من بيتنا
القريب .. لذاذ الطعام ، ثم شربنا نخب انتصارنا كازوزا فوارا
فأترعت البطون . وخصوصا جرى هذا الاحتفال لان طافوحت كثيرة لنا
منتشرة هنا وهناك لم تستطع التقاط عصفور . وزادت فرحتنا عندما
علمنا ان الطافوحة القريبة من هذه التقطت عصفورا فطار . كانت
حجرتها هشة ، فكسرت من عزم الصدمة عندما انزاح عود الزيتون ،
فوقعت على العصفور . طار متثاقلا لكنه أفلت .

احتضنت العصفور بمكور صنعته من كفي . مشيت مزهوا
بالانتصار يتبعني ركب من الاطفال اولاد حارتنا . كنت المسيطر ..
لا يخرجون عن ارادتي . أمرت أحدهم :

- فارس ، اذهب واحضر شاشة من عندكم لتربط رجل العصفور
المكسورة .

... يتطلق مسرعا ، ويقابلنا في ساحة دارنا راكضا وهو يلهث :

- آتيت بميزان الحرارة أيضا .. !!!

- هل تعتقد أنه مريض ؟ ... انه الشيطان الزعلان !

وترتفع الاصوات من الاطفال تحمل رنات لذة الاستطلاع :

- لنر كم هي حرارة العصفور ؟!

يتناول أخي الذي كان يرتدي لباسا كتفيا الميزان . يثبت
العصفور . ينفخ الريش بزفراته القوية ، ثم يدخله بالضغط في شرج
العصفور . وتتعالى الضحكات مع زقزقات العصفور وتعليقات البعض :

- يلزمه (رايد) - صناعة وطنية - ليُدخل !

- بل ضعوا له قطرة من زيت الزيتون ، فهو يسهل العملية اكثر .
ثم ينبري احدهم ، وكان قد احضر لفيفة خبز مدهونة زيتنا
بالفليفة ، ويمسح قطعة على شرج العصفور ، فينزاح مكان لتقسيم
الميزان ، وتعلو السقسقات المثالة . ثم يسحب أخي الميزان ، وتشرئب
الاعتناق فلا تعجبها درجة الحرارة ، فتصيح :

أدخلوه أدخلوه !

يلتقط أخي الكشاف الميزان . لم يطهره . وبالسيطرة على الجمع
يدخله في متقار العصفور العذب . تلاقي الفكرة استحسانا لجديتها .
وتنبعث الفهققات لا تلوي على النتيجة ، وكم ستكون درجة الحرارة .

تجمعنا في ساحة الدار الضخمة ، وبانتقاء أخي الكشاف فرز بعض
الاطفال المقربين فدخلوا الفرفة ، كانت غرفة من خشب ، رتبت امتعتها
خصيصا للعب الاطفال وصنع وظائفهم . الكتب في داخلها نضدناها على
رف خشبي . ما يعيق حركتنا نوم الى الجدار . أفلتت الفرفة بعد أن
طرد أخي من كان بمعيتنا بعيدا عن الباب والنوافذ .

وللمرة الاولى لاحظت العصفور الصغير بعد ان تأملته جميلا
ليس كباقي العصافير : ريش جذاب مزركش ، فأنسته عريضة قوية ،
عنق طويل رشيق . فهو لا شك سليل حسب ونسب . كان فاتنا بين
العصافير أقرانه .

تحلفنا حوله في الفرفة وعيوننا لهفى لحركاته . وضعناه في
قفص . اغترب واكتاب ، وكان لفتنة يكتفي بالصياح . الا ان شكله
الخارجي أخذ يقرب بسبب تساقط ريشه المرقش الجميل من محاولات
كانت كلها فاشلة للخروج من القفص . لم يكن يدرك كيف يخرج منه .
كان يضرب جسمه في جنباته بعنف ويرتمي عقب كل محاولة .. كاد
يحطم نفسه المسكين دون جدوى . قدمنا له القمبز : لم يكرث ..
اللوز والنجوز : لم يعبا .. الماء : أهرق على أرض القفص . شعرنا
أنه ضعيف .. أشفقنا عليه ، ولكننا لم نكن نريد له الحرية الكاملة ،
وذلك يعني بالنسبة لنا ضياع قفص جميل فريد لا يمكن للصدف أن
توقعنا بأفضل منه . ومن يعرف ؟! فلمدة طويلة لم نستطع اصطيد
شيء رغم أن الحقول مرعة هذه السنة ، والعصافير لا يسهل اقتناصها ،
فتحن بدائيو الوسائل ، ونادرا ما نفتش عن القوت تحت شراكتنا التي
ننصبها ، فالزهور والحبوب تؤرج المكان وتضفي عليه ظلالا ونعمة ليست
كالظلال المصطنعة التي ترميها طافوحتنا فوق أوكارها .

ابتدرنا أخي فخطف القفص من وسطنا فهاج الجمع وصدرت
صيحات استنكار .. لم تكن نعرف ما كان يضم فعله . أراد فتح باب
القفص ، ومد يده المتشنجة ، الا انني لم أشعر الا بصيحة مني زمجرت
في وجهه ، وأمسكت بيده وأخرجتها من القفص ، بينما كان العصفور
قد انزوى جانبا في مكان بعيد عن الباب . زعق في وجهي : « يا أجدب ،
سأريك أنه غير مريض ! » .

كنت ألحظ بوارق سادية تنصوأ بها عيونه . كان يبغي اطلاق
سراحه لينلذذ بعذابه المسكين . وبافتعال حركة طيران من كفه بعد أن
قفز وجنح قال : « هكذا سيظهر » .

ثم أخذ يتربص في الارض ويففز قفزات عصبية متقدمة الخطو
كمن يتلذذ باخافة طفل لعوب . الاطفال نعموا بالحركات والفكرة تنبوا
مخيلتهم .

- اتركوه اتركوه ! صاحوا . فقد جال بأذهان معظمهم انهسم
سيعيشون اللذة التي لم يعرفوها قط . في أعصابهم سرى شبق معاناة
التجربة . كانوا في موضع امتياز بين الاطفال الحرومين من المشاركة
في هذه اللعبة الممتعة . سيقصون عليهم بفخر ذلك . سيحكون لهسم
أشياء مشوقة مستجدة على اسماعهم . سيجذبونهم للتقرب الي لادخلهم
ليستمعوا .

كنت أبغي للعصفور حرية محلية توسع دائره سيطرتي على بعض
المشاكسين من ناصبي الطافوحت الذين يهرعون لينشدوا لذة الاستمتاع
برؤيته يتعذب مفلتا في غرفة مغلقة . انني صاحب عصفور ملون وهم

يحلون بنوري بسيط دون ألوان . سيحومون حولنا أبداً من الان فصاعداً . قلت سنتركه ! ... أوصدوا الباب والنوافذ . احذروا الشقوق !

صاح أخي الكشاف : - لا تطلقوه ؟! سأرى الاولاد أولاً .

أطل من الباب ، ألف كمة من سبابته والابهام وهدد بها كل من يقترب من المكان ثم دخل .

هرج ومرج انطلق مع رفة قذفت بالعصفور الى اعلى السقف . ارتطم به . ارتد . أخذ يطير تحت السقف . . . حام كثيراً . تعب . ثم مهدد بجناحيه . حاول الوقوف على أحد الجدران المضاء فما من مرتكز . طار ثانية . علا وانخفض . جنح ورفرف ، ثم استلقى منهكا على اطار صورة تربع داخله شعاع نرده كل يوم في المدرسة . لم تتركه يرتاح . صياح يعلو واشارات يطير على اثرها العصفور . يتعلق بحديد الارجوحة . يتأرجح فلا يزل ، ثم يختل توازنه فيهبث ثم يرتقي . يجنح ثم يضم .

كاد يسقط على الارض من زعيق وصياح جد عنيف يتنبهه ايثما حل وارتحل ، ايثما انطلق واقتعد . كنا نقل حرينه ، فلم يلبث أن أطلق زفرقة مدعورة ، حام بعدها تحت السقف بينما الصياح يعلو صاحبا وفي العيون تسبح نظرات التشفي . كنا شرسين ، نضوب نظرات حادة تبت الذعر في قلب العصفور لتخرج قهقهات طائشة على اشداق الاطفال المنتشين .

العصفور يتشبث بمحطات تريد له البقاء في عالم الزوغان، فيبقى هذا العالم غير المنيع . كان موقفنا ببرياء يحمل الموت البطيء ، لذا صرخت: « اتركوه !.. اهدأوا ! سينزل !.. » .

قبح العصفور التعب على حافة خشبة في سقف الغرفة . ارتكن واطمان قليلا وصدرة يعلو ويهبث . انتظرت برهة ثم قذفته بنواة تمر . انطلق ليثبت في زاوية أخرى تحت السقف ، وأخذ ينظر الى عالما السفلي المستهجن ، أخذ يوصوص بألم يعقبه صمت .

- « لن ينزل بالهين » صاح أخي الكشاف . اشمل المصباح الكهربائي ، ثم قذفه بقطعة شوكولاه أخرجها من جيبه . فطار العصفور وأخذ يحوم بينما تدافع الاطفال صائحين بحثا عن الحلوى بين الأرجل . هرع العصفور وقذف بنفسه على زجاج النافذة المغلقة لنا منه بانه وصل الفلاة بانشغال الاطفال ، لكنه انكفا . سكن هنيهة على دكة النافذة ثم جنح للاعلى وأسف من فوق رؤوسنا ليصطدم بزجاج النافذة الاخرى . عشي نظره من شدة الاصطدام في الزجاج سراب حرينه . أخذ يصيح بزفزقات طويلة يائسة ويهيم على وجهه يصطدم في كل صوب .

العصفور المسكين حسبته قد جن ، فقد أخذ يطير مترنحا فيصطدم بالجدار والسقف ، ثم يقرب نور الكهرباء المشتعل في وضع النهار فيصدم زجاجة المصباح الكهربائي فيبهز نظره ويعاف حرارة المصباح لينبطح على أرض الغرفة - مسرحنا الضيق - ، ثم يكرج جزعا امام عشرات الاصابع المتوترة ليطيير قبل ان تتشجع على جسمه الزغب .

كان أخي يفهقه وهو يخاطبه :

- انطلق ... انطلق ، فهنا غرفة ! فيعلق أحد الاولاد :

- مهما هرب منا سنلتقطه .

العصفور يحط ثانية على أرض الغرفة . يهرع الاطفال لالتقاطه . يهرب كأنه في فر وكر . كاد أحدهم يدهسه برجله ، ولا أعلم كيف وثبت الى هذا الطفل فازحته بعيدا ورميته أرضا وأنا أقول :

- مجنون ! ... انتبه !.. !

حنقت على كل أولئك الاطفال . أردت أن أطردهم خارج الغرفة الا أن أخي قال :

- لن ينزل دونهم ، فهم خبيرون في الكش .

قلت بقاءهم على مضض . أجلستهم على الارض . كم شعرت بشيكة الضمير على اعطائي تلك الحرية المزيقة لهذا العصفور المسكين

... حاولت جهدي اقناعه بلطف بان ينزل لاضمه في القفص فرفض... لقد خاف من الجمع الفوضوي بأسفله ... شققت له الباب وأنا محتاط لهروبهم فلم يستطع أن يفهم ... أخذ يواصل ضرب جسمه بالنافذة محاولا النفوذ الى نور محجوب بفتحة مرآة شفاف . كاد العصفور المسكين يحطم نفسه . أوصدت الباب ثانية وجلست أمام الاطفال على الارض .

أخذنا ننظر العصفور . طار وجلس على « الافريز » في منتصف النافذة . أخذ ينظر عبر الزجاج الى الخارج . وبعيدا في السماء أخذ يحوم طائر عرفنا أنه جارح يخطف الطيور فهو « شاهين » . انقض فتاة على الزجاج . كاد يحطمه . صعقتنا فوجئنا . خاف أخي الكشاف ، تكلم على عقبه الى مؤخرة الغرفة . تقدم الاطفال صائحين صيحات الذعر في وجه الشاهين . ولسبب ما طار وأخذ يولب دوائر اهليلجية في الفضاء الرحب فوق الغرفة ، بينما كان العصفور قد انتجا الى دكة النافذة وهو يصيح صيحات الاستسلام .

تقدمت التقطت العصفور المتورد مستغلا ذعره . خيم وجوم على الاطفال . هدا العصفور في يدي دون حراك . تقدمنا جميعا . ساعدوني باحضار القفص . أودعته فيه . قال احدهم :

- كاد الشاهين يمزقه ! قال آخر :

- لولا وجودنا لانتهى . احتج طفل ثالث :

- لو وضعنا الاطفال الذين طردناهم في الخارج على النوافذ ، لما تجرأ الشاهين على الانقضاض .

أهرق أخي الاحتجاج بقوله :

- جاءت سليمة . مليح انقضت بهذا الشكل . البارحة مزق حمامة بيت عمي ، وهي الان مريضة .

فعلقت : - كان يجب عليك أن تصنع حصيرا أو شبكة خلف النافذة فتامن من الشاهين .

- قولوا الحمد لله على السلامة يا جماعة . قال أخي .

قلت : - الحمد لله على السلامة لكننا كنا لم يحتظ للامر ، فانفضوا اذا أردتم ؟!

مضيت اكتب وغانفي المدرسية . كنت أعود بين يوم واخر لاغتني به . . . أضع له الماء ، اخرج الاوساخ من القفص ، أقدم له طعاما عاديا، فتعود وأنس ، وعلى مر الايام ائلف وسعد كما أوحى لي بذلك . ومرة انطلق بالفناء بعد أن حل به الإبلال من كسر ساقه ، فسعدت واخضوضلت الدار بتفاريده الشجية ، وأضفى على الحي سحرا جميلا يسكبه اصواتا حلوة في آذان الجميع ، وخصوصا الاطفال الذين طردناهم يوم الشاهين ، فقد تلاموا مع انغامه ، وأخذوا يذبون عنه الشاهين اذا ما لولب طائرا فوق دارنا .

لقد همت حيا بهذا العصفور ، فأخذت العناية الفائقة به على عاتقي ، ثم احضرت قضيبا احدهم دلني عليه ، وقال بأنه خير من

منشورات دار الآداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤، شارع الملكي - الإحباس

تلفون ٦٢٣.٠٩

وكم كان فرحي عظيما وعلى أشده عندما لحظت الكلب الاحمر سوسو يأتي بالقش الناعم والاصواف وكل ما تحتاجه العصافير ليلقيها بمودة قرب القفص . فيتناولها العصفوران ليبنيا فسي القفص عشا صغيرا مريحا للزغاليل . تركتهما لم اتدخل في امرهما ، فهما اعلم بما يريح ابناءهما ويضمن لها البقاء .

كم كانت سعادتني حقة يومئذ . رجعت من المدرسة يوما مساء للاحظ قصر اجنحة العصفورين فسالت المنزل :
- من قص اجنحتها ؟ قال أخي الكشاف :
- أنا ، وما الضرر في ذلك ؟!

قلت : لقد سمعتني يا لعين بانتي سافتح لها باب القفص لتنتقل للبحث عما يفيد الفراخ من الغذاء ، ولتتعم بالحرية .

ودونما انتظر جواب عفتي بحق : فلا خوف عليها يا بهيم مسن الهرب لانها اصبحت مرتبطة بالصغار .

- نعم سمعتك !... وانا خائف من عدم رجوعها ان انطلقت ونعمت في احضان الطبيعة .

- الطبيعة ! هه !... الطبيعة هنا يا مفغل ، فقانون الكون يقضي عليها بان لا تترك اطفالها وتهرب .

- افعل ما تريد فقد حدث ما حدث !

ولاول مرة شعرت بالالم المر يحز في نفسي .. يحرق حنجرتي ، وشعرت بانتي بحاجة للبكاء . الا انني انشغلت بحركات هجومية يقوم بها الكلب ، ثم ينكس ، يراوغ ويهجم . حاولت طرده . لسم يرعو . نظرت الى القفص واذا بالزغاليل تلعو علبة فيه ثم تنفض على امهسا لعوبة متدربة ، وهي تنظر الى الكلب فتفتعل حركات متشابهة مسع حركاته كانما تتعلم منه سر البقاء .

محمد وليد زهدي

اللاذقية

الطاووحة : « انه قضيب دبق لا يكسر رجل العصفور ! » . وضعته فوق القفص . اخذ عصفوري يشدو شدوا مفرحا يجذب البشر فكيف بالطيور . يا الله كم كانت فرحتي عظيمة يوم التقط خلف الدبق عصفورا يشبه عصفوري ! : ريشه .. جماله .. عنقه . فحصته ، اطرافه سليمة . ادخلته قفص السعادة الى جانب عصفوري الحبيب .

يوما اخذ فظ اسود يلوب حوله . كان يعيش في حيننا منذ مدة . سمعت انه خطف عدة طيور . كنت اخافه . كان بدينا ، الا انه خفيف الحركة . كان دنيئا شرسا يشبه الفهد بجثته الملووة . كنت اذكر كلام امي بانه يراوغ ، وانه دليل شؤم . حاولت مطاردته مرات كثيرة ، لم افلح في زركه او النيل منه . كان ذكيا خفيفا ، يستخدم حيطان الجيران ، ينتقل حولها ، وينقض منها على القفص القابع فوق البركة . محاولاته لم تفلح . كان يطرد من عند الجيران فيرى غيرهم . لم يياس من فشله المتكرر لاختطاف عصفوري الحبيب . كنت اصادفه في النهار وفي الليل ، في حيننا وفي الحي المجاور تلمع عيونته المشعة الجهرة المفزعة ، حتى بت احسبه بانه قادر على الوجود في أكثر من مكان .

كلب احمر انقذ عصفوري مرة من مباغتة خاطفة لهذا القط اللعين . وقع يومها القفص . غشي العصفور من صعق الصدمة . ففز الكلب المختبيء وراء حافة البركة منقضا على القط . هرب القط . طارده الى جدار الحوش . اعتلى حرف الحائط . وقف وفي نفسه الرجوع . حاول النزول ثانية . انطلق الكلب الاحمر « سوسو » وراءه هاج عليه . فر القط . الا انه كان يود العودة لولا اخذ سوسو يضرب اشواطا الى اليمين واليسار متبخترا امام البحيرة وكله تيقظ للمقارعة ثانية تكون القاضية على السواد اللثيم .

بعد لاي احتفلنا نحن اطفال الحي بميلاد زغاليل فسي القفص : رقصنا ، دبكتنا ، اخذت القفص ، ففزت ارقص به . حقا انها فراخ جميلة زغب الريش متممة . اخذ عصفوري بزفها ، يثقي ريشها الهش الناعم من الاقدار .

محمود احمد السيد

رائد القصة الحديثة في العراق

تأليف

الدكتور علي جواد الطاهر

اول دراسة مسهبة عن رائد القصة العراقية الحديثة الذي اثار اهتمام المستشرقين والباحثين بما انتجه من روايات وقصص مهدت الطريق لجميع كتاب القصة الحديثة في العراق

يصدر هذا الشهر